﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: 64][1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بين الـــنّـــكـــوص عـــن المباهـلـة، والـــدّعـــوة إلى كلمة سواء بين الطّرفين

لـمَّا نَكَصَ النَّصارى عَنِ المُباهلة، بَعْدَ أنْ أوردَ عليهم أنواعَ الحُجَج فانقطَعوا، فلم تَبْقَ لهم شُبْهَةٌ، وقَبِلُوا الصَّغَارَ والجِزْيَةَ، ولم يَبْقَ إلَّا إظهارُ النَّتيجة، فأَمَرَهُ أنْ يُكرِّرَ عليهم الإرشادَ بطريقٍ أَخَفَّ ممَّا مضى؛ بأنْ يُؤنسَهم فيما يدعوهم إليه بالمؤاساة، فيدعوَ دعاءً يَشمَلُ المُحاجِّين مِنَ النَّصارى وغيرِهم ممَّن له كتابٌ من اليهود وغيرِهم، إلى الكلمة الّتي قامت البراهينُ على حَقِّيَّتها، ونَهَضَتِ الدَّلائلُ على صِدقِها؛ دعاءً لا أعدلَ منه، على وجهٍ يتضمَّنُ نفيَ ما قد يُتخيَّلُ مِن إرادة التَّفضُّل عليهم، والاختصاصِ بأمرٍ دونَهم؛ وذلك أنَّه بدأَ بمُباشَرَةِ ما دعاهم إليه، ورضيَ لهم ما رضيَ لنفسه، وما اجتمعت عليه الكتبُ، واتَّفقَت عليه الرُّسُلُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: حيثما ذَكَرَ اللهُ تعالى أهلَ الكِتَاب؛ فالمرادُ بالكِتاب: التَّوراةُ أو الإنجيلُ، أو هما جميعًا، ونداؤهم بأَهلِ الكِتابِ فيه شَيءٌ مِنَ المَدحِ، وإقامةِ الحُجَّة عليهم[3]، وقد "ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمُ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِفِرَقِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ،

(1) وسببُ نزولِ الآيةِ: أنَّه لمّا قَدِمَ وفدُ نَجْرانَ المدينةَ، والتَقَوْا معَ اليهودِ، اختَصموا في إبراهيمَ ﷺ، فزعمتِ النَّصارى أنَّه كانَ نصرانيًّا، وهم على دِينه، وقالت اليهودُ: بل كانَ يهوديًّا، ونحن على دِينه، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «كِلَا الفَرِيقَيْنِ مِنْهُ بَرِيءٌ، بَلْ كَان حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَأَنا عَلَى دِينِهِ»، ينظر: العُليميّ، فتح الرّحمن: 1/469.

(2) البقاعيُّ، نظمُ الدُّرر: 4/446 - 447.

(3) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 3/375.

وَتَوَسَّعَ الْحَنَفِيَّةُ فَقَالُواْ: إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمْ: كُلّ مَنْ يُؤْمِنُ بِنَبِيٍّ وَيُقِرُّ بِكِتَابٍ؛ وَيَشْمَلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَمَنْ آمَنَ بِزَبُورِ دَاوُدَ، وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَشِيثٍ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ دِينًا سَمَاوِيًّا مُنَزَّلًا بِكِتَابٍ"[1].

2) ﴿تَعَالَوْاْ﴾: أصلُه من العُلُوِّ، وهو السُّمُوُّ وَالارْتِفاعُ في المَنزِلِ والمَنزِلَةِ، فكأنّه دعاءٌ ونداءٌ إلى ما فيه رِفعةٌ، أو: مِن التَّعالي، وهو السُّمُوُّ والعُلُوُّ بالارتفاع، من مَوْضِعٍ هابطٍ إلى مكانٍ عالٍ، ثمَّ كثُرَ استعمالُه حتَّى صارَ دالًّا على طلَب التَّوجُّهِ إلى حيثُ يُدعى إليه، وإنْ لم يكن انتقالًا مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والمرادُ: تَعْيينُ ما دَعَوا إليه، والتَّوجُّهُ إلى النَّظَرِ فيه[2].

3) ﴿كَلِمَةٍ﴾: جمعها كَلِمات وكَلِم: لفظة واحدة، أو مجموعة ألفاظٍ دالّةٍ على معنًى وفي الحديث: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»، ومنه قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، والمراد: شهادة أنْ لا إله إلّا اللّه[3]، وأصلُ اشتقاقِ الكَلامِ من الكَلِمِ، وهو: التَّأثيرُ، ومنه قيلَ للجُرْحِ: كَلْمٌ؛ لتأثيره في الجِلْدِ[4]، فالمعنى: هَلُمُّوا إلى كَلِمةٍ فيها إنصافٌ مِنْ بعضنا لبعضٍ، لا مَيْلَ فيها لأحدٍ على صاحبه[5].

4) ﴿سَوَآءٍ﴾: هو اسمٌ بمعنى الاستواء، نُعِتَ به كما يُنعَت بالمصادر مُبالغةً، ويُفسَّرُ بمعنى العَدْلِ والنَّصَفَةِ؛ لأنَّ ذلك مُستوٍ، ويُفَسَّرُ بمعنى الوَسَطِ، قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝﴾ [الصَّافَّات: 55]، أيْ: في وَسطه، قال الزَّجّاجُ: ﴿سَوَآءٍ﴾ نعتٌ للكلمة، يريدُ: ذاتِ سَوَاءٍ، فعلى هذا قولُه: ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ أي: كلمةٍ عادلةٍ مُستقيمةٍ مُستويةٍ، فإذا آمنّا بها نحنُ وأنتم كنَّا على السَّواءِ والاستقامة[6]، "وكلُّ مُسْتَوٍ من أرضٍ ومكانٍ أو غير ذلك من شيء، فهو سواء؛ وَمِنْهُ قَوْلُ اللّه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، أي عدل ذات استواء"[7] قَالَ الشّاعر:

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية: 7/140.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علو)، والرّاغب، المفردات: (علا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (علو، علي)، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252، والآلوسيّ، رُوح المعاني: 2/180.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/1954.
(4) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 3/422.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/557، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 1/36.
(7) الخطّابي: غريب الحديث: 2/187.

فاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ الْأَعْدَاءِ *** حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى الْسَّوَاءِ

5) ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: مُستويةٍ بيننا وبينكم، لا يختلفُ فيها القرآنُ والتَّوراةُ والإنجيلُ[1]، ولا يختلفُ فيها الرُّسلُ، ويُفسِّرُها ما بعدَها: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[2].

6) ﴿أَرْبَابًا﴾: أَصلُ الرَّبِّ: إِصْلَاحُ الشَّيْءِ ولُزُومُهُ وَالقِيَامُ عَلَيْهِ، وضَمُّ بَعضِهِ إلى بعضٍ في تَجَمُّعٍ، وتَمَاسُكُهُ من أَجلِ الإصلاحِ أو الانتفاعِ[3]، والأربابُ: جمعُ رَبٍّ، وهو السَّيِّدُ المُربِّي المُطاعُ فيما يَأْمُرُ ويَنْهَى، أي: لا نتَّخذَهم أربابًا فنعتقدَ فيهم الأُلوهيَّةَ، ونعبدَهم على ذلك كعُزيرٍ وعيسى[4].

7) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عمَّا دعوتموهم إليه من التَّوحيد وتركِ الإشراك[5]؛ والتّولّي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبار، فإنّ تولّي الرّسول عن ابن أمّ مكتوم لم يكن بالإدبار، والتّولّي بالإدبار قد يكون على حقيقته، كما في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كنايةً عن الانهزام كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التّوبة: 25][6].

8) ﴿ٱشْهَدُوا۟﴾: شَهِدَ: كلمةٌ تَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ، والمشاهدَةُ: الحُضورُ والمُعاينةُ، وشَهِدَهُ شُهُودًا: حَضَرَه، وقومٌ شُهودٌ، أي حُضورٌ[7]، " والشّهادة خبرٌ قاطعٌ تقول منه: شهد الرّجل على كذا، وربّما قالوا شهد الرّجل، بسكون الهاء للتّخفيف؛ عن الأخفش. وقولهم: أشهَدُ بكذا؛ أي: أحلف "[8].

9) ﴿مُسْلِمُونَ﴾: أصلُ السِّلْمِ والإسْلام: الصِّحَّةُ وَالعافِيَةُ، أو: صِحَّةُ جِرْمِ الشّيءِ والْتِئامُ ظاهِرِه في ذاته، ومنه الإسلامُ: الانقيادُ؛ لأنَّ فيه سَلامةَ الإنسانِ وعافيتَه بتَسليم نفسِه للّه[9]، ومعنى ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أي لزِمَتْكمُ الحُجَّةُ، فاشْهَدوا واعترِفوا بأنَّا مُسلمون دونَكم، وأنَّكم كافرون حيثُ تَوَلَّيتُم عن الحقِّ بعد ظُهورِه[10].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/371.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/251، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/21.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ربّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ربب - ربرب).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/195.
(5) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 28.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شهد).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلم).
(10) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/371، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قلْ أيُّها الرَّسولُ لهم: تعالَوا يا أهلَ الكِتَاب مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، نَجتَمِعُ على كلمةٍ عَدْلٍ نَستوي فيها جميعًا[1]، طالبًا منهم أن يرتفعواْ من وهدة الباطل الّتي هم فيها واقعون، إلى كلمةٍ سواءٍ، كلمةِ عدلٍ ونَصَفٍ للفريقين، فريق النّبيّ وأصحابه، وفريق أهل الكتاب؛ من نصارى نجران ومن والاهم، ومفاد الكلمة السّواء أن يعبدواْ اللّه وحده دون شريك، وأن لا يتّخذ بعضُهم بعْضًا أربابًا من دون اللّه، فيفرض المتبوع على التّابع طاعته، ويُلزمه بالسّجود له تعظيمًا وتقديسًا، فإن أبواْ، فأَشْهِدُهُم بأنّك من المسلمين، ثابتًا لا تتحوّر، وملتزمًا لا تتغيّر[2].

الدّعوة إلى كلمة العدل والإنصاف في تصوّر رسالة الإسلام وعقيدته

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

ابتدأتِ الآيةُ الكريمةُ بفعل الأمرِ ﴿قُلْ﴾، وهو تكليفٌ متضمِّنٌ معنَى التَّشريفِ، وفيه إيماءٌ إلى أهميَّة ما سيُتلى بعد ذلك.

وجِيءَ بأداةِ النِّداء (يا) الّتي يُنَادَى بها البعيدُ بعدَ فعل الأمر ﴿قُلْ﴾؛ للإيماء إلى غَفْلَة المخاطبين.

وميَّزتِ المنادَى الْإِضافَةُ في قوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ لإعلام المخاطبين أنَّهم مخصُوصونَ من بين النَّاس ومقصودون بالأمر، فيزدادوا انتباهًا لِمَا نُودُوا من أجلِهِ[3].

مِنْ مَحَاسِنِ الْكَلَامِ تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ قَبْلَ تَوْجِيهِ مُهِمَّاتِ الْأَوَامِرِ إِلَيْهِ

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ﴾:

قوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يَعمُّ كلَّ مَنْ أُوتيَ كتابًا كما هو ظاهرُ اللَّفْظِ؛ إلَّا أنَّ الأقربَ هنا حَمْلُهُ على النَّصارى؛ لأنّه أوردَ في الآيات

الْإِنْصَافُ وَلِينُ الْكَلَامِ أَدْعَى إِلَى اسْتِجَابَةِ مَا يُدْعَى الْمَرْءُ إِلَيْهِ

(1) نخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 58.
(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/327.
(3) سعاد زدام، أحمد بن بلّة، دلالة الأساليب الإنشائيّة في القرآن الكريم، ص: 121.

مِنَ الدَّلائل عليهم أوَّلًا، ثمَّ باهلَهم ثانيًا، فعَدَلَ في هذا المَقام إلى الكلامِ المبنيِّ على رعاية الإنصافِ، وتركِ المُجادَلَةِ، وطَلَبِ الإفحامِ والإلزامِ، ممّا يَدُلُّ عليه أنَّه خاطبَهم هنا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

وهذا الاسمُ - أهل الكتاب - مِنْ أحسنِ الأَسماءِ وأكملِ الألقابِ، حيثُ جَعَلَهم أَهْلًا لكتابِ اللهِ تعالى، فإنَّ هذا اللَّقَبَ يدلُّ على أنَّ قائلَه أرادَ المُبالغةَ في تعظيمِ المُخاطَبِ وفي تَطْييبِ قلبِه، وذلك إنَّما يُقالُ عند عُدولِ الإنسانِ مع خَصْمِه عن طريقةِ اللَّجاجِ والنِّزاعِ إلى طريقةِ طَلَبِ الإنصافِ[1]، وهذا أدْعَى إلى قبول ما يُدْعَى إليهِ.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعَالَوْاْ﴾:

اخْتِيَارُ اللَّفْظِ الْمُنَاسِبِ فِي الْحِوَارِ أُسْلُوبٌ دَعَوِيٌّ مُؤَثِّرٌ

الفعلُ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ مأخوذٌ مِن التَّعالي، وهو الارتفاعُ مِن مَوْضِعٍ هابطٍ مُستَفِلٍ إلى مكانٍ عالٍ، ثمَّ كثُر استعمالُه حتَّى صارَ دالًّا على طَلَبِ التَّوجُّهِ إلى حيثُ يُدعى إليه، والأمر ﴿تَعَالَوْاْ﴾ دالٌّ على الالتماسِ، فقد جاءَ على سبيلِ التَّلطُّفِ، دونَ تَضرُّعٍ ولا استعلاءٍ، فكأنَّ كلمةَ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ في الآية الكريمةِ تَدعو أهلَ الكتابِ دَعوةً كريمةً وَدُودَةً إلى أنْ يَرتَفِعوا إلى مَنزلةٍ عَقَدِيَّةٍ ساميةٍ، تُمكِّنُهم مِن توحيدِ اللهِ تعالى[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما هم عليهِ من الدِّين ليس بشيءٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ ﴿كَلِمَةٍ﴾ مُفْرَدَةً دُونَ جَمْعِهَا:

أَدِلَّةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَشَوَاهِدُهَا مِمَّا يُسَهِّلُ قَبُولَهَا وَالْإِقْرَارَ بِمَضْمُونِهَا

عَبَّرَ في الآية الكريمة بالكلمةِ عَنِ الكلمات؛ لأنَّ الكلمةَ قد تُطلقُها العَربُ على الكلامِ، إمَّا لوضعِ المُفْرَدِ مَوضِعَ الجَمْعِ، وإمَّا لكون الكلماتِ مُرتبطةً بعضُها ببعضٍ، فصارت في قوَّة الكلمةِ الواحدةِ، إذا اختَلَّ جُزءٌ منها اختلَّتِ الكلمةُ؛ فكلمةُ التَّوحيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، كلماتٌ لا تَتِمُّ النِّسبةُ المقصودةُ فيها مِنْ حَصْرِ الألوهيَّةِ في اللهِ إلَّا بمجموعِها[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/251 - 252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/193.
(2) الغول، الإعجاز اللُّغوي في سورة آل عمران، ص: 61، و271.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/194.

ويُمكنُ أن يكونَ في الآيةِ مجازٌ مُرسَلٌ، مِن بابِ إطلاقِ الجُزء، وهو الكلمةُ، وإرادةِ الكُلِّ، وهو قولُه: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾.

والتَّحقيقُ أنَّ إطلاقَ (الكلمة) على اللَّفظِ المفردِ هو اصطلاحٌ نحويٌّ، أمَّا (الكلمةُ) في لسان العرب فتُطلَقُ على الكلام المفيدِ، وهو الاستعمالُ المطَّرد لها في الكتاب والسنَّة[1]، فاستعمالُ الكلمةِ في الآيةِ مرادًا بها كلمة التَّوحيد: لا إله إلَّا اللّه؛ استعمالٌ حقيقيٌّ جارٍ على طريقة العربِ، ولا يمنعُ أن يكون إفي فرادِهَا إشعارٌ بأنَّ المطلوبَ من أهل الكتابِ ليس أمرًا شاقًّا عليهم بحيث يصعبُ عليهم أن يُجيبُوا إليه، بل أدلَّتها وشواهد صحَّتها تُسهِّلُ قَبولَهَا.

بَلَاغَةُ التَّمْثِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا﴾:

اَلْعَدْلُ مَعَ الْخُصُومِ مَدْعَاةٌ لِرُجُوعِهِمْ إِلَى الْحَقِّ

قول اللّه تعالى: ﴿كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا﴾ خرجَ مخرجَ التَّمثيلِ؛ إذ جُعلتِ الكلمةُ المُجتَمَعُ عليها شبيهَةً بالمكانِ الذي يُرادُ الاجتماعُ عنده، تحقيقًا لمعنى الاستواءِ وإبرازًا له في قالبِ المحسوسِ.

وضميرُ: ﴿بَيۡنَنَا﴾ عائدٌ على معلوم من المَقام، وهو النَّبيُّ ﷺ والمسلمون، ولذا جاء بعدَه: ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[2].

تَأْكِيدُ مَنْطُوقِ الْأَلْفَاظِ بِمَفْهُومِهَا وَلَازِمِهَا:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ وَاتِّسَاقُهَا سِمَةٌ مُلَازِمَةٌ لِلتَّرْكِيبِ الْقُرْآنِيِّ

الأفعالُ الّتي دخلت عليها أداةُ النَّفي ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿وَلَا نُشۡرِكَ﴾، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾ مُنسجمةٌ مِنْ حيثُ المعنى، يُؤكِّدُ بعضُها بعضًا؛ إذِ اختصاصُ اللّهِ بالعِبادة يَتضمَّنُ نفيَ الاشتراكِ، ونفيَ الأربابِ من دون اللّه، ولكنَّ المَوضِعَ مَوضِعُ تأكيدٍ[3]، رعايةً لحقِّ التَّوحيدِ.

(1) ابن تيمية، الجواب الصحيح: 3/286.
(2) المصدرُ نفسُه: 3/269.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ التَّعريضُ بالّذين عبدوا عيسَى (1) عليه السلام.

بَلَاغَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

تَأْكِيدُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ

في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ؛ إذ صُرِّحَ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِۚ﴾ قبلُ في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر أن يرد النَّظمُ: (ألَّا نعبدَ إلَّا اللّٰه ولا نشرك به شيئًا ولا يتَّخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دونِه)، ونكتة الإظهار: تَربيةُ المَهَابةِ بتَكرار الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِۚ﴾، وتأكيدُ معنى الألوهيَّة الذي تضمَّنَهُ، وترسيخُهُ في القلوبِ؛ لعظيمِ الحاجةِ إليه، لأنَّ المقامَ مقامٌ لِبيانِه.

دَلَالَةُ عَطْفِ ﴿وَلَا نُشْرِكَ﴾ عَلَى مَا قَبْلُ:

الْعُبُودِيَّةُ للهِ تَعَالَى هِيَ غَايَةُ الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الْخُضُوعِ

أفادَ عطفُ ﴿وَلَا نُشْرِكَ﴾ على ما قبله، وكذا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾ التَّشريكَ في الحُكْم والإعرابِ والمعنى؛ لاتِّحاد الجُمَل في الخَبريَّة[2]، وحسَّنَ العطفَ اشتراكُهَا في الفِعْليَّةِ، وما بينها من تناسُبٍ في المعنَى؛ لِاسْتِلْزَامِ كُلِّ فعلٍ لما بعدَهُ.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿شَيْـًٔا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾:

الْعِبَادَةُ مَحْضُ حَقٍّ للهِ تَعَالَى

الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ راجعٌ إلَى اللّٰه تعالى، و﴿شَيْـًٔا﴾: أعمُّ كلمةٍ في العربيّة، وقد جاءتْ نكرةً؛ أي: لا نَتَّخِذَ مَعَهُ مَن لا يَستحقُّ أن يكونَ رَبًّا، وليس عنده مُقوِّماتُ الألوهيَّةِ أو الرُّبوبيَّةِ؛ كعيسى عليه السلام، أو أحدٍ مِن خَلْقِهِ، أو أيِّ شيءٍ مهما كان.

و﴿شَيْـًٔا﴾: يَحْتَمِلُ أنْ يكون مفعولًا به، ويحتملُ أن يكون مصدرًا، أي: شيئًا مِنَ الإشراك، وجاء النَّكرةُ في سياق النَّفْي لتفيدَ عمومَ ما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/269.
(2) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة: 1/467.

يُتَّخذ من دون الله تعالى؛ إذ العبادَةُ محضُ حقِّ الله تعالى، لا تُصرف لا لمَلَكٍ مقرَّبٍ ولا لنبيٍّ مرسَلٍ، بل إنَّ العموم في التَّنكيرِ يشمل عمومَ مُتعلِّقاتِ الفعل من مفعولٍ به ومصدرٍ وزمانٍ ومكانٍ وهيئةٍ[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الِافْتِعَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾:

الـتَّـوجُّـهُ إِلَى غَـيْرِ اللهِ تَعَالَى خِـلَافُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْفِطْرَةُ.

لَـمَّا كان التَّوجُّهُ إلى غير الله خِلافَ ما تَدْعُو إليه الفِطرةُ الأُولَى، عبَّر بصيغةِ الافتعالِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ الشِّركَ لا تطاوِعُه الفطرة فيحتاجُ المرءُ إلى أن يتكلَّفَه تكلُّفًا شديدًا.

دَلَالَةُ الْبَعْضِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾:

الْبَشَرِيَّةُ تُنَافِي الْأُلُوهِيَّةَ.

في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ إيماءٌ إلى إبطال ألوهيَّة عيسى عليه السلام؛ فإنَّ البشريَّةَ المستفادةَ من ﴿بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ تُنافي الألوهيَّةَ؛ إذْ كانَ مِثْلُكَ استحالَ أن يكونَ إلهًا، واختصاصُ الله بالعبادة يتضمَّن نفيَ الاشتراكِ، ونفيَ اتِّخاذِ الأربابِ من دون الله تعالى[2].

الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾:

مِـنْ طَـرِيـقَـةُ الْـقُـرْآنِ الْـكَـرِيـمِ طَـيُّ مَـا دَلَّ السِّيَاقُ عَلَيْهِ.

في قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذ حُذِفَ متعلَّق التَّولِّي، والتَّقديرُ: فإن تولَّوا مُعرضين عن الحقِّ وعمَّا دُعُوا إليه، أو: فإنْ تَتولَّوا عن الحقِّ الَّذي أُمِرْتم به ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3].

بَرَاعَةُ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْعِلْمِ بِالشَّهَادَةِ:

إِخْـرَاجُ الْمَعْقُولِ فِـي قَـالَـبِ الْمَحْسُوسِ أَظْهَرُ فِي الْبَيَانِ

خَرَجَ التَّعبيرُ عن العلم بالشَّهادة على سَبيل المبالغةِ في قوله تعالى: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ وذلك لإخراجِ المعقولِ إلى حيِّز المشهودِ، وهو المُحضَرُ في الحِسِّ.وفي هذا تصريحٌ بمخالفتِهم ومخاطبتِهم ومواجهتِهم بذلك، وإشهادِهم فيه على معنى التَّوبيخِ والتَّهديدِ، أي: ستَرَوْنَ أنتم أيُّها المُتولُّون عاقبةَ تَولِّيكم كيفَ تكونُ[4].

(1) المصدر نفسه: 3/195.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196.
(3) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة، ص: 467.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/449، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196، والطِّيبيّ، فُتُوح الغيب: 4/13.

حُسْنُ التَّرَقِّي فِي الْحِجَاجِ:

الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى قَائِمَةٌ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

في القِصَّة إرشادٌ وحُسْنُ تَدرُّجٍ في الحِجَاجِ والمُناظرةِ، فقد بيَّنَ أوَّلًا أحوالَ عيسى عليه السلام، وما تَعاورَ عليه من الأطوار المُنافيةِ للألوهيَّة، ثمَّ ذكرَ ما يَحُلُّ عُقْدَتَهم، ويزيحُ شُبْهَتَهم، فلمَّا رأى عِنادَهم ولَجاجَهم دعاهم إلى المُباهلَة بنوعٍ من الإعجاز، ثمَّ لمّا أعرضُوا عنها وانقادوا بعضَ الانقيادِ؛ عادَ عليهم بالإرشادِ، وسَلَكَ طريقًا أسهلَ وألْزمَ، بأنْ دعاهم إلى ما وافقَ عليه عيسى والإنجيلُ وسائرُ الأنبياءِ والكتبِ، ثمَّ لمّا لم يُجْدِ ذلك فيهم أيضًا، وعَلِمَ أنَّ الآياتِ والنُّذُرَ لا تُغني عنهم؛ أعْرَضَ عن ذلك، وقال: ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَخْذ والاتِّخاذ:

الاتِّخاذُ: افتعالٌ من الأَخْذِ، والأَخْذ والاتِّخاذ هو تحصيلُ الفعلِ للنَّفْس، أو: أخذُ الشَّيءِ لأمرٍ يَسْتَمرُّ فِيهِ، وتأتي للاجتهاد في أداءِ الفعل بالمبالغة فيه، ولتسمية الشَّيءِ والحُكم عليه بغير حقيقتِه، كاتّخاذِ الكفّارِ آلهةً من دون الله[2]. أمَّا الأَخْذُ فخِلافُ العطاءِ، وهو تَحصيلُ الشَّيءِ في الحَوْزَةِ بقوَّةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾ [الأعراف: 150][3]، والأخذ مصدر أخذتُ بيدي، ويستعار فيقال: أخذَهُ بلسانه؛ إذا تكلّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102].

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/21، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.
(2) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 138، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نقم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»